المحاضرة التاسعة

السرد في أدب الرحلة

إنها صدمة اللقاء البدائي مع الآخر ودهشة الذات الفطرية إزاء البعيد و المختلف وانتهاء بتمثيلات الآخر بما هو حضور جسدي ملتبس و متخيل ثقافي مطرّز بالاستيهامات عبر ذاكرة ثقافية تستثير آليات الاختزال و الوسم و الاستبعاد.

تمهيد:

عرفت البشرية الرحلة باعتبارها فعلا إنسانيا في كل المراحل و بأشكال مختلفة، حاملة تجارب و خبرات اختلط فيها الواقعي باالتخييلي بتلوينات شتى

الرحلة: المفهوم و الأسس

لقد تنوعت نعوت التسمية و تعددت؛ فتحدث البعض عن " أدب الرحلة" و هو قصد واضح بانتسابها لحقل السرد، فيما هناك نعت آخر يكتفي بالحديث عن هذا الشكل باسم " الرحلة" فقط بهدف فتح نافذة إضافية على التاريخ باعتار الرحلة مصدرا غميسا و سجلا إثنوغرافيا ومادة جغرافية و في خضم هذا التراوح جاء نعت " الأدب الجغرافي" باعتبار الأوصاف التي رسمت عمران المدن و البلدان.[1]

[1]- ينظر شعيب حليفي" الرحلة في الأدب العربي" مكتبة الأدب المغربي 2002 ص: 37

ينتسب النص الرحلي إلى التراث النثري باعتباره سردا و وصفا يعمدان إلى صياغات مشاهد رؤيوية أو مروية أو حلمية تنحدر من ذاكرة ذات جذور في الواقع المادي [1]

الرحلة إذن أدب يمزج:" التسجيلات الوصفية و الإنشائية التعليمية بالحكائية و التسجيلية" لتحقق إدراكا بالعالم و مقارنته" [2]، فالرحلة هي:" النوع الأدبي الذي يفسح المجال أمام ترسيخ تقليد الموازنة بين فضاءين و قيمتين و صورتين حتى في الحالات التي تقتصر فيها الرحلة على مجرد الوصف للعالم الجديد لأن هذا الوصف يخضع عن و عي أو لا وعي لمنظور و ثقافة الواصف الذي يعمل على تحويل لغوي و مفهومي للمنظورات"[3]

تتحقق الرحلة سرديا عبر نص يتراوح بين بين الواقعي و التخييلي بأسلوب يسجل و يصف رحلة انتقال السارد من فضاء إلى آخر على المستوى الفعلي أو انتقال ذهني متخيّل في الماضي أو المستقبل دنيويا أو آخرويا، و هي في كل الحلات تجربة يحياها الرحالة من أجل هدف فردي أو جمعي لغاية تحقيق منفعة مادية أو روحية.

و يتم السرد في الرحلة بضمير المتكلم بتنويعات متفاوتة الحركة إلى جانب عناصر الوصف و الإخبار و التعليق و التذكر و الحلم، و استعمالات أسلوبية تختلف من رحالة إلى آخر و أيضا بحسب:" التيمة المهيمنة في إطار التعدد النوعي الذي يرصد التجربة و يحول الرحلة إلى إلى شكل نصي يعكس تجربة وجودية"[4]

اشتغال السرد في أدب الرحلة:

---

[1]- ينظر المرجع نفسه ص:

[2]- سعيد علوش"الصورة الغربية في الذاكرة الشرقية:أدب الرحلات" مجلة الثقافة الأجنبية، العراق السنة التاسعة العدد3.31998/ص15

[3]- المرجع نفسه ص19

[4]- شعيب حليفي" الرحلة في الأدب العربي" ص:70

1السرد و الذاكرة: أهم ما يميز الرحلة عن الجغرافيا هو الخيال، إذ "يستوعب الخيال الواقع و الخيال للواقع"[1]. يتعلق الأمر بشكل من الكتابة يدمج الممكن باللاممكن و يدخل الحياة اليومية في حكايات عجيبة من خلال المسافة التي تفصل التجربة عن الكتابة مما يؤدي إلى امتزاج أحداث الواقع و اختلاطها بالمخيلة بحيث يتم الانطلاق من الذاكرة لاستعادة التجربة الفعلية فيتم تسريدها مما يؤدي لامتزاجها بالانطباعات الشخصية للرحالة فتضحى الرحلة على هذا النحو:" كتابة من الذاكرة و استعادة لوقائع و مشاهدات قد يكون مضى عليها زمن با تخلو فيه الذاكرة من من التعرض لآفة النسيان أو جعل الوقائع تضطرب في تسلسلها و التواريخ تختلط مع بعضها البعض و لا تخلو بطبيعة الأمر من جعل انطباعات الأمس تختلط بمشاعر اليوم [2]

2سرد العبور: يقصد به انتقال الرحالة في الزمان و المكان من نقطة الانطلاق:" فرحلنا من مدينة السلام يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة تسع و ثلاثمائة" ([3]) إلى نقطة الوصول:" و كان وصولنا إليه يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت في المحرم سنة عشر و ثلاثمائة" [4]

يتميز هذا السرد بطابع تقريري باعتباره مجالا لانطلاق و انتقال الرحالة من أجل اكتشاف معارف جديدة، إذ يحدد فيه الرحالة محطات الإقامة و الرحيل و يحدد مدتها

3 سرد المشاهدات: باعتبار خطاب الرحلة شهادة عن الهم المعرفي الذي يضطلع به الرحالة و عن نشدانه احقبقة يجب أن يكون ما يقوله وفيا لما تمت رؤيته فيكون لزاما عليه أن يقدمه بكافة الوسائل المتاحة، إذ يتحرى الموضوعية و الشفافية فما هو مرئي بالنسبة له عبارة عن وئام بين الكلمات و الأشياء المرئية[5] تماشيا مع الطرح المعرفي الذي تتغيّاه الرحلة و هو تعليم المتلقي بجعل تجربة الرحالة بمثابة مرشد لمن يريد

---

[1]- عزيز العظمة" العرب و البرابرة" رياض الريس. لندن 1991ص:48

[2]- سعيد بن سعيد العلوي" أروبا في مرآة الرحلة" منشورات كلية الآداب بالرباط1995 ص:42

[3]- ابن فضلان"رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة"ت سامي الدهان.مكتبة الثقافة العالمية بيروت:73

[4]- المرجع نفسه ص:113

[5]- ينظر بوشعيب الساوري" الرحلة و النسق" دار الثقافة للنشر، الدار البيضاء ص:211

القيام برحلة مماثلة.و يقوم الرحالة في هذا السرد بتحويل الفكرة إلى سرد بصري يمنحنا معرفة مرئية عبر شهادة العين على أساس أن الصورة المقدمة غير مألوفة لدى الرحالة و لدى نسقه فيحاول تقريبها قدر الإمكان [1] و بكل ما تسعفه به اللغة التي تغدو كاميرا. ففي رحلة ابن فضلان مثلا نتج هذا السرد نتيجة ولعه بالصورة البصرية انسجاما مع النموذج الإرشادي العيان إذ لم يكتف بتقديم المعلومة فقط، بل قدمها بشكل بصري حي فكانت مشاهداته أشبه بالأفلام الوثائقية.

و يتميز سرد المشاهدات بالتذويت فهو سرد ذاتي يقدم الرحالة من خلاله ذاته و وعيه و تفاعله مع المشاهدات بتقديم الفكرة قبل السرد فتتراوح بين التقرير و التصوير(مشاهد الفن). و يتم الامنتقال من التقرير إلى السرد و التصوير عندما تعجز آليات النسق التعليمي عن التعبير عن الفكرة التي تبقى في نظر الرحالة غير واضحة فيعبر عنها بصيغة أخرى تحريا للأمانة و الصدق.

و يأتي سرد المشاهدات جوابا عن سؤال يطرحه الرحالة و كذلك المتلقي و هو " كيف ذلك؟" لأن الفكرة المقدمة لا تشفي غليله فيحتاج إلى تشخيص مما يؤدي إلى شرعنة السرد[2]

اشتغال المرويات داخل الرحلة: تدخل المرويات في إطار الخطاب الذي ينسبه الرحالة إلى غيره بوصفه ناقلا لها عبر السماع، و تكون هذه المرويات عبارة عن مثل أو خبر أو أسطورة:

أ- المثل: و هو عبارة عن رواية موجزة تنقل بالحكاية و هي مأخوذة من التجربة الانسانية و تتميز بالحس الواقعي و يتم توظيفه في الرحلة لتأكيد الفكرة و أخذ العبرة.

ب- الخبر: يندرج في إطار الحديث عن العادات و التقاليد و بعض الظواهر االجتماعية التي يلتقطها الرحالة بوصفها شاذة عنه و عن نسقه فيحاول إسناد حديثه بخبر من الواقع الفعلي .

ج- الأسطورة: تغدو الحكاية الأسطورية وسيلة من وسائل الحصول على المعرفة كالبحث عن أصول بعض العادات أو تكون نصا يخلد حادثة خارقة.

---

[1]- ينظر المرجع نفسه ص:212

[2]- ينظر المرجع نفسه ص:213

الرحالة بعد عودته من الرحلة يحاول لملمة شتات ذاكرته الناتجة عن تجربة المعاناة و البحث عن المعرفة.

و لقد تأطرت الرحلة مثلها مثل النصوص السردية الطويلة التي شكلت الإرث التراثي الممتلئ بالخيال و بصمات الواقع و بثقافة العين ووجهات نظر مشتتة حول الآخر و بإضاءات للأنا و النحن و نسجت وشائج متعالقة مع أشكال دينامية تلمع سرود التجربة و تحفزها من أجل معرفة الذات باعتبارها وسيلة للمعرفة و الانفتاح على العالم[1]

إن أسئلة الرحلة نصا و كتابة مأزق في تصنيف بؤرة جامعة و متحولة لا تقف عند أجوبة شافية قد نأنس لدفئها بقدر ما تستثير فينا أسئلة مقلقة..

[1]- ينظر شعيب حليفي:" الرحلة في الأدب العربي" ص:70